قلق ...

قصة بقلم سلوى اسماعيل عبده

اسند ظهره الى العمود الحديدي الذي وضعت في رأسه بافطة مستديرة حمراء كتب عليها ٨ ـ ٩ ـ ٦ وترك عينيه تسبحان في الفضاء بينما اذناه تلتقطان كل ماتسمعانه وان كان لايحس بما يسمعه على الرغم من ازدحام المكان .

جميعهم ينتظرون الاوتوبيس مثله وكان اغلبهم من الموظفين .. واحس بشيء من السعادة حينما دس نفسه وسطهم ، لقد اصبح موظفا بعد بحث طويل وامتحانات كثيرة اجتازها ليحصل على مثل هذا العمل .

لقد حاول ان يبدو متانقا قبل ان يغادر البيت ، وقف امام المرآة مرارا ليطمئن على مظهره ، وكانت في اذنه تطن عبارة صديقه ، « المظهر هو كل حاجة » ، حكمة سخيفة ولا شك ، ولكنه وجد نفسه يلبيها ، حاول ان يتعاظم ويسير في مشية متكبرة ، لان الحكمة الاخرى التي سمعها من صديقه « التعالي يغيظهم ولكنه يجبرهم على الاحترام ، هكذا العمل يا اخي ، من اول يوم حاول ان تبدو شيئا فوق مستواهم ، سينحنون لك حتى لو كنت موظفا صغيرا » ، حكم مضحكة ولكنها تتسرب الى نفسه فتقلقها وتثير فيها ضيقا شديدا لان العمل من خلالها يبدو مخيفا كله عمالقة ذئاب ، لاهم لهم الا اقتناص الطيبة واستغلال الطيبين، ها هو اليوم الاول الذي سيكون فاصلا في حياته « يا اما تاكلهم او ياكلوك » حكمة اخرى من حكم ذلك الصديق الخبير كما يصف نفسه .

خرج من البيت وهو يحاول ان يكون متماسكا ، وعندما ابصر المحطة مزدحمة بالمنتظرين بدا التماسك ينحل شيئا فشيئا وما دس نفسه وسط هذا الزحام حتى خيل اليه ان لاوجود له ولكنه حينما تفحصهم بعينيه القلقتين ورأى ان اغلبهم موظفون حتى تنهد وبدا الارتياح على وجهه:لقد اصبح واحدا منهم ، لايبدو على اكثرهم الضجر ولكن الوجه قد يخدع، من يدري ؟!

وانطلقت حكم صديقه تلتف حول رأسه وتطن في اذنيه فدفعته الى ذلك الشرود فانفصل عمن حوله ، وهو يحاول تخيل مكان عمله . لم يستطع ان يحدد مكانه فيه ، لم ير الا وجوها خبيثة متملقة ذئبية الملامح فاضطرب قلبه بشدة وترك الصمود وجعل يروح جيئة وذهابا والازدحام يشتد .

وهمس بضعف : هذا فوق الاحتمال ! ان انفاسي تضيق ، كيف يستطيع الانسان ان يجد مكانه وسط هذا الضجيج ؟

وترامى لعينيه الكرسي الاحمر ـ المنفرد في الاتوبيس ـ يتسع حتى يصبح كبيرا يجلس عليه ليمد قدميه فوقه .

واقبلت فتاة تضج بالحركة ، رشيقة لطيفة ، فاشرق الكرسي الاحمر ووجد الفتاة تجلس بجواره وكتفها تلتصق بكتفه وساقها بساقه : ترى هل هناك موظفات مثلها ؟!

وتوقف فجاة وقد احس بنفور شديد اذ وجد نفسه يفكر بتلك الطريقة السقيمة ، وابصرت عيناه اتوبيسا قادما ، فدق قلبه بعنف ، لقد قربت الساعة ، ودقق النظر في البافطة الموضوعة امامه وهو مقبل من بعيد ، وهتف ببعض الارتياح :

ـ ستة حسن ليت جميع هؤلاء يبتلعهم هذا الاتوبيس !

وتوقف ، وصعدت نساء ونزل بعضهن وانطلق تتبعه عيناه ، لقد ذهبت الفتاة الرشيقة .

ان الازدحام كما هو ، وعاد الكرسي الاحمر يتراقص امام عينيه ،ولكنه هز كتفيه كمن يريد ان يذهب عنه ذلك التفكير السقيم وقال متسائلا :

ـ هل احتلال مقعد خال يمنح شيئا من السكينة ؟ اللعنة على هذا الرأس الذي لايسع الا التفاهات ! اني اضيف ببضع دقائق امضيها واقفا؟ فكيف السبيل الى الراحة في العمل اذن ، وحولي كل تلك الوجوه الخبيثة ؟

ولكن المعقد يلمع بشدة في خياله ، واقبل رجل بدين يضع في معصمه ساعة ذهبية ضخمة . فخيل اليه ان القيظ يشتد وان المكان المتسع يضيق حتى يطبق عليه ولم يعد يرى الا نقطة حمراء صغيرة تتارجح داخل الاوتوبيس .

ـ هل ساجد اصدقاء ؟

سأل نفسه هذا السؤال بعد ان استرد انفاسه وبدا يعود الى نفسه، واجاب في نفسه : ـ لاشك انني ساجد صديقا واحدا على الاقل .

ـ هل انا قادر على العمل الجيد ؟

توقف عند هذا السؤال ، وحاول ان يكتشف مدى قدرته فاستعاد كفاحه الدراسي ، كان طالبا عاديا ، لن يكن طموحا ، كان لايريد ان يفكر وينفر من كل مايدفعه الى التفكير ، ولكن نجاحه في امتحان الوظيفة كان صدفة ولا شك ، لقد عجب هو نفسه من نجاحه .

انه يشك في ارضاء رئيسه .. وتراءى له رئيسه بدينا تتدلى الساعة من صديريته بينما تختفي عيناه وانفه في سمنة وجهه ولا يبدو من وجهه الا بريق صغير ذكي لايرتاح له لما فيه من صرامة وشدة .

واقبل الاتوبيس من بعيد ينمو شيئا فشيئا حتى توقف امامه تاركا عجلاته تئن من حمله الكبير .

وحشر نفسه وسط الناس فالمقعد الاحمر الخالي ضرب من المحال في مثل هذه الاوقات . لم يكن محتاجا لان يسند نفسه الى اي شيء ، فقد كان محاصرا من جميع النواحي وكانت الاصوات تعلو من هنا وهناك ، وصوت الكمساري يطلب ثمن التذاكر ويعلق في كل مرة يقطع فيها تذكرة بعبارة يحاول فيها ان يبدو ظريفا مضحكا والناس لايسعها الا ان تبتسم بسخرية بينما تخفق عيناه في فهم هذه الابتسامات لامعانه في التظرف.

كلما قع نظره على شخص خيل اليه انه قد يكون زميلا له في العمل واذا استدار ليلقي نظرة الى الشارع امام الاتوبيس ملات عينيه جثة الرجل البدين الذي يشبه ذلك المدير الذي رسمه في خياله ، بينما انطلق الاتوبيس يلتوي ثم يستقيم ودفعة واحدة يتوقف ليقذف مابجوفه او ليبتلع مايبصره على المحطات . كان عاجزا عن لم شتات نفسه المبعثرة فعيناه تظللهما سحابتان فلم يعد يرى الناس الا كتلا ادمية امتلا رأسها بالفتحات الدائرية التي تتحرك دون توقف حتى خيل اليه انها استحالت الى دائرة واحدة مشوشة الحركة .

وتوقف الاتوبيس وقذف مابجوفه وكان هو من بينهم ، سار الناس صفا واحدا يتثنى ويتارجح متجها نحو المبنى الكبير حتى ابتلعت الابواب الكبيرة هذه الاجساد .

اما هو فتوقف ليشد نفسه ويتماسك ويفكر في الطريقة التي يبدأ بها زملاءه في العمل الكلام . واذا حضر المدير ماذا يقول له حتى يكسب اهتمامه ؟!

أيحدثه بكل مافي نفسه من مخاوف من هذا العمل الجديد ام يتظاهر بالشجاعة وان العمل ليس حقيقة رهيبة ؟ واستقر رأيه على الاسلوب

الثاني فالضعف لايغتفر ، حقيقة مخيفة كامنة في نفوسنا ، اســـاس حياتنا ، ومع ذلك لم يعترف بها . هكذا قال مقنعا نفسه بوجوب الادعاء حتى يبدو كل شيء هينا وحتى لاتتبخر الوظيفة من يده .

وصعد السلالم الدائرية يبحث عن رقم غرفته . كان المكان كخلية النحل ، الناس يسيرون في الممرات ، تبدو على وجوههم معان لم يستطع فهمها ، بينما الارقام تمتصها عيناه بسرعة وقلق حتى وجد نفسه امـام غرفته . فتوقف فجاة وقد دق قلبه بعنف وصعدت الدماء الى راسه وثقلت قدماه حتى لم يستطع تحريكهما ولم يبق في جسمه نشطا الا عيناه اللتان استقرتا على يافطة كبيرة كتب عليها « ممنوع زيارة الموظفين» ورأى اليافطة تهتز امام ناظريه وتراءى له المكتب نظيفا منظما دقيقـا في مواعيده وعمله فتسربت الطمانينة الى قلبه وهمس : ـ تشجع وادخل انهم مثلك قد تفضلهم وقبل ان تمتد يده لدق الباب ودفعه زوى مابـين حاجبيه وهمس : ـ بمـــاذا ؟!

وامتدت يده الى قلبه المضطرب وضغط عليه بينما عض شفتـــه باسنانه واستدار الى الممر الطويل خلفه فخيل اليه ان لانهاية له وانه كان خاليا على كثرة الناس فيه ، ووجد رجليه وكانهما ترتدان الى الخلف بسرعة شديدة حتى ترتطمان بتلك اللانهاية .

وفتح الباب فجاة فانتفض في وقفته بينما وجد نفسه وجها لوجـه امام فتاة نحيلة طويلة ، اكتسى وجهها بصرامة مفتعلة بينما حملت فـي يدها اوراقا كثيرة ، ووقف صامتا امامها بينما جعلت عيناها تتفحصانه ثم سمع صوتها المفتعل في قوته : ـ افنـدم !

فادرك انها موظفة وزميلة ايضا فارتبك في وقفته بينما قال متلعثما

ـ انـا الموظف الجديد هنا ..

فزوت الفتاة مابين حاجبيها وزمت شفتيها وبدت السخرية في عينيها وهمست بصوت راعش ساخر ـ آه ! حضرتك .. تفضل !

وتركت الباب مفتوحا وتركته بينما تبعها بنظراته حتى تلاشى ظلهـا في احد الابواب الجانبية وهمس لنفسه باضطراب

ـ بدايـة المتاعـب !

واستدار الى الباب وتلقفته عشر عيون كانت قد ادركت انه الموظف الجديـد .

وجمد في مكانه امام هذا الستار من النظرات المتفحصة الفاحصة .

وشملت عيناه المكان فراى الغرفة فسيحة وقد صفت المكاتب بجانب الجدران وفي اقصى الحجرة كان هناك مكتب شاغر خال من كل مظاهـر العمل ، فادرك انه مكانه فاطمان لانعزاله .. بينما سمع صوتا نسائيـا اخر يخاطبه متسائلا :

ـ حضرتك الموظف الجديد ؟

فاستدار اليها فوجدها امراة متوسطة البدانة مصبوغة الشفتين كالحة البشرة وقد انفرجت شفتاها عن اسنان صفراء معوجة . فانقبض صدره بينما قفزت الى راسه الفتاة التي شاهدها في محطة الاتوبيس . وهـز راسه مجيبا : ـ اجـل انـا .

بينما اشارت بيدها الى مكتبه بطريقة مسرحية ضحك لها كل مـن في المكتب فاحس بان شيئا في نفسه يتمزق فاستدار بغيظ يريـد ان يقول اي شيء ، اي شيء وقد دوى في اذنيه حكم صديقه ولكـن الكلمات ماتت في حلقه عندما لم يبصر على وجوههم مايتهمهم به فقـد بدوا وكانهم يتصرفون تصرفا طبيعيا لايختفي خلفه اي معنى ، فلم ترتح نفسه بينما سارت قدماه تجرانه الى مكتبه وهناك تهالك على مقعده .

واستطاع من هناك ان يرى الموظفين بوضوح ، كانوا ستة منهم فتاتان، رجل واحد قصير ينكب فوق مكتبه يعمل وقد بدا على وجهه العزم والاهتمام فاطمان قلبه له بينما انطلقت عيناه تتفحصان الاخرين كان اثنان يتبادلان الاحاديث وهما يتارجحان على مقعديهما ويقطعان الحديث بضحكات صاخبة تقلقه وتثير اشمئزازه . الرابع يرتب اوراقا امامـه ببطء وبين الفينة والاخرى يفتح فمه ليتثاءب مما جعله يحن للنـــوم والى سريره الذي لم يستطع الرقاد فيه ليلة امس .

واغمض عينيه وهو يحاول اكتناه شعوره العام نحو هذه الغرفة . لـم يكن في اعماقه غير الاسوداد والقتامة . كان يريد ان يعدو خارج الغرفة خارج المبنى ، بل خارج الدنيا ويرتمي بين ذراعي امه ، انه وحيدهـا وحبيبهـا .

ولكن صوت الباب يفتح والفتاة الدقيقة تدخل فتقطع عليه عدوه ، فتعلق عيناه بوجهها الناحل الرقيق المفتعل في صرامته فيبتسم ويهمس لنفسه بمرارة :

ـ انها تستطيع على الاقل ان تدعي شيئا ما ، لماذا ابدو عاجـــزا هكذا فزعا ؟ يخيل الي انني لن آلف هذا المكان ولن آلف اي شيء اخر.

ودنت الفتاة منه ووضعت امامه اوراقا وهمت بالانصراف ولكنها توقفت اذ سمعته يسالها : ـ هل لك ان ترشديني ؟!

فنظرت اليه زاوية مابين حاجبيها ثم قالت متسائلة

ـ الا تعرف مهمتك ؟

فهز راسه في حيرة وخجل ـ كلا .

فانحنت الفتاة فوق المكتب وامتدت ذراعاها الدقيقتان فوقه وبدا صوتها رقيقا ناعما ، ووجد نفسه يطمئن اليها ورغب في معرفة اسمها فجمـع شجاعته وقال : ـ هل لي ان اعرف اسم حضرتك ؟

وتطلعت اليه الفتاة بنظرة لم يدرك معناها ثم انفرجت اساريرهـا وكانها اطمانت الى ان سؤاله لايخفي اي معنى يسيء اليها واخبرتـه باسمها . بينما ادرك ان الشك يحيا في اشد المواقف بساطة وتفاهة .

وانصرفت الفتاة عنه بعد ان ارشدته الى عمله وقد عاد الى وجههـا ذلك التعبير الزائف بسرعة وسهولة وانصرف معها ذلك الامل في تحطيم ذلك الحاجز الذي احسه حينما دخل هذه الغرفة .

حاول ان يركز عينيه على الاوراق ولكن احساسه بالتفرد والغربـة اربك فكره ، فاغمض عينيه ليخفي اضطرابه ، واحس بخطوات تقتـرب منه وسمع صوت شيء يوضع على المكتب ، ففتح عينيه ببطء فاذا بـه يرى قدحا من الشاي فدهش ، ولكن الخادم اشار الى ركن معين فراى الرجل الذي يتثاءب كثيرا فابتسم له وشكره وفي اعماق نفسه شعـور بالتقزز من مظهر ذلك الرجل . كان منظره غبيا سخيفا . فعجب كيف تصدر هذه اللباقة من شخص مثله ولم يجد تفسيرا لذلك السلوك ولكن الخادم قطع عليه حيرته بان همس :

ـ ده عايز يشتريك ، اصله بتاع نوم !

فادرك مايعنيه الخادم الذي استمر هامسا عندما بدت على وجهـه الدهشة ـ دول كلهم غش ، حاسب منهم ، انت قلبك طيب .

فخشي ان يتمادى الخادم فصرفه وقد اعجب بذكائه وخبثه ، يمتدحه ليؤثر عليـه .

وعندما انصرف الخادم عادت الافكار القاتمة تضطرم في راسه حتى خيل اليه انه وقع في كمين مليء بالافاعي .

ومضى النهار دون ان يكترث له احد الا ذلك التهامس والنظرات المتهترة التي يتلقاها من الموظفين الاخرين .

وعندما هم بالانصراف دنا منه الرجل الذي قدم له قدح الشاي وحياه بطريقة مبتذلة بينما تكشفت شفتاه عن اسنان مكسرة ثم انطلق يسـرد عليه متاعبه الطويلة التي انهاها برجاء منه ان يساعده في عمله .

وتناهى الى اذنيه ماهمس به الخادم وابتسم بمرارة وهز راسه مدعيا تلبية مايريده ليصرفه عنه .

وانطلق الى الطريق يحمل في صدره قلبا ثقيلا بينما تتبعه ضحكات هازئة وشبح فتاة نحيلة مسترجلة وامراة قبيحة تمعن في تامل نفسهـا في مراة صغيرة ووجه منكب على مكتب لايرى مايحيط به وفم لايفتـح الا للتثاؤب وصوت خادم يحذره :

وهمس لنفسه بضعف : ـ اي وجه من هذه الوجوه ساكونه ؟!

وفتح عينيه بشدة محاولا ان يرى نفسه ولكن ذراعين رقيقتين فتحتا له وصوت امه يرحب به . فاختلطت الامور ولم يستطع ان يتعرف على نفسه ورأى ظله يهتز فوق الارض وسار وهو لايدري اي وجه سيكونه وقـد انتشرت في الفضاء حكم صديقه تتراقص كالبهلوان .

القاهـرة

سلوى اسماعيل عبده